
سيّرين
مريم العلمي
دار نسمة
للنشر الإلكتروني

سیرین



اسم الكتاب: سيرين
اسم الكاتبة: مريم العلمي
نوع العمل: رواية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-406-251003
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2025م / 1447هـ



دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Darbassma1@gmail.com
المملكة المغربية

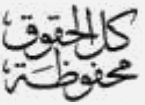

دار بسمة للنشر الإلكتروني تقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

سيرين

رواية

مريم العلمي




بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عـائلتي، فـردًا فـردًا، أولئـك الـذين لم تضـعفهم الأيام، ولم تشتتهم تقلبات الوقت، بل ظلوا كما هم: سندًا لا يُمال، وجذرا لا يقتلع، وملجأً حين تتكالب اللحظات وتضيق الطرق. لكل منكم شكر لا تفيه الكلمات، وامتنان لا تسعه الصفحات. فأنتم البداية التي أعود إليها حين يضيع المعنى.

إلى صديقتي التي لا حاجة للإطناب في شكرها، تكفيها نظرة واحدة تعرف بها كم كانت النور في العتمة، واليد حين خانني التوازن. شكرًا لك، لأنك كنتِ هناك، ببساطة، وهذا كان كافيًا.

إلى كل من وثق بي حين كنت أقف على حافة التردد، إلى الذين لم يسألوا كثيرا، بل مدّوا أيديهم دون شرط، واكتفوا بأن يشاركوا العبء في صمت. إلى أولئك الذين مروا بالكلمات، أو اكتفوا بوجودهم في اللحظة المناسبة، أو ألقوا بكلمة واحدة تركت في داخلي أثرا لا يُمحى.

هذه الرواية لم تولد من فراغ، بل من دفعة قلب، ومن دفء أشخاص جعلوا الطريق أقل وعورة، والليل أقل وحدة. هي لكم، جميعًا، بصدق لا يزيّنه تكلّف، وبدعاء يرافق أسمائكم ما حييت.



تقديم

إن للظلِ أهلاً، وللخفاء قوماً، يسيرون بينكم، ينصتون لنجواكم، ويعبثون بمصائركم دون أن يُحسَّ بهم أحد. إنهم الجان، تلك الأمة التي سارت في الدروب قبل أن ينفخ في الطين روح، سكنوا الأرض وأرسوا فيها ملكًا، حتى انتزع منهم وجاء من بعدهم بشر أُوتوا السجود والتكريم، فامتلأت قلوب منهم بالحقد، وتحركت أخرى بالدهاء، وسار فريق ثالث بين بين، يتحالفون حينا ويخونون حينا آخر، وكأنهم انعكاس مسخٌ لأخلاق البشر.

لكن، ما أعظم فزعهم، وما أشدّ ما يقلق مضاجعهم! إنهم كائناتٌ تدور في فلك الخوف، لا من الحديد والنار، بل مما لا يُرى، من كلمات يرددها المؤمن في آناء الليل، من نورٍ ينفذ إلى عوالمهم فيحرقهم كمًا تحرق الشمس العيون الواهنة.

ثم تراهم في أغادرهم، يبرمون العهود كما يبرمها الملوك، يخدعون ويُخدَعون، يسوقون الأوهام لمن باع نفسه، فمنهم من يهب القوة، ومنهم من يُمتع بالملذات، لكنهم لا يمنحون شيئا دون مقابل، وكل عهدٍ يُكتب، لا يُكتب إلا على صفحة الروح، حيث لا رجعة ولا توبة.

لكنهم، وإن ظنّوا في أنفسهم بأسا، لهم من المخاوف ما يزلزلهم، وما يهدم صرحهم في طرفة عين. لا يهابون الحديد، ولا تنال منهم السيوف، لكنهم ينفرون من كلمات تُتلى في سكينة الليل، ويهربون إذا صدح النور في حناياهم. يخشونَ الطهر كما يخشى اللص ضوء القمر، فإذا ما مست آذانهم همساتٌ من ذكرٍ، احترقوا كما تحترق الأجساد في سعير الجمر. قال الله تعالى في وصف خوفهم وفزعهم من الذكر:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرءانًا عَجَبا﴾ (الجن: 1)

فما سمعوه إلا وخروا مصغين، وما وعوه إلا وكان فيه هلاك غوايتهم، ومنهم من آمن، ومنهم من ازداد رجسا إلى رجسه.

فبحسب ما شاءت طبائعهم، فمنهم المارد الشاهق، كأنّه جبل متحرك، ومنهم القزم المحتال، يندس بين الظلال فلا تدركه الأبصار، ومنهم من يتخذ من أشكال الدواب هيئته، تراه قطًّا أسود يحدّق من خلف النوافذ، أو كلبا مهجورا ينبح في الليالي الداجيات، ومنهم من يتلبس بالعتمة نفسها، فلا يكون له جسد، إنما أثر يرتجف له القلب، ورهبةٌ لا تُفسَّر.

واسأل القرآن يخبرك عن مارد طويلٍ كالنخل، وعن شيطان يُخيل إليك أنه يملك ألف وجه وألف يد، واسأل الروايات تحكي لكَ عن

ذوي الأعين المتقدة كالجمر، عن الأجساد المنسوجة من ضباب وسراب، عن الأرواح التي تسري في الغرف دون أن تُفتح الأبواب.

وما الجانّ إلا قومٌ شُكّلت أجسادهم من لهب وسراب، وجُبلت أرواحهم على مكرٍ ودهاء، تباينت طباعهم كما تباينت وجوه البشر، فمنهم المارد الذي لا يطأ الأرض إلا نارا، ومنهم الخبيث الذي لا يرى إلا همسا في الظلال، ومنهم من أُعطي السلطان على قومه فملك، ومنهم من هام على وجهه لا يقر له مقام.

يخافون النور، لا نور الشمس، إنما نور الحق، ذاك الذي يجلو حجبهم ويفضح مسالكهم، يُعذَّبون بأيسر الكلمات، وتُحرق جلودهم بآيات يلقيها اللسان في يقين وثبات. يقفون على الأبواب، يُلقون الوسوَاس، يسوقون الوهم لمنَ افتتن، فإذا ما وقع العبد في حبائلهم، ضربوا على قلبه فلم يعد يسمع إلاهم، وساقوه كما يساق العبد إلى سوق النخاسة، حتى لا يكون له من أمره شيء.

لكنهم ليسوا سواء، فمنهم من سكن أطراف العالم، يراقب من بعيد، لا يريد بالبشر نفعا ولا ضرًّا، ومنهم من يقتات على الخوف، يعيش على الرهبة، يختبئ في الظلمة، في زوايا الغرف، تحت الأرائك، فوق الأسطح، ينفذ بين الأبواب كما ينفذ الماء بين الأصابع، يستمع للنجوى، يتربص بالفريسة حتى إذا انكشفت، وثب عليها كما يثب الضاري على غنيمته.

وإنما أخطر ما فيهم صفقاتهم، تلك التي تُبرم في ليال لا يشهدها إلا القمر، تُكْتَب بمداد لا يبقى له اثر، ويُقْسم عليها بأيمان لا تنحل، فمنهم من يهب العبد ملكًا على الأرض، ومنهم من يفتَّح له باب الشهوة حتى يغرق، ومنهم من يلقي إليه بالعلم الممنوع، لكنه لا يعطي شيئًا إلا وقد قبض من الروح مقابله، وما من صفقة عُقدت مع شيطان إلا كان وراءها ندم ووبال، وما من عهد أُبرم معهَم إلا كان في طياته خديعةٌ لا تنكشف إلا بعد فوات الأوان.

هكذا تسري الحكاية، في خفاء دام قرونًا، حتى آن أوانها أن تُروى، فتكشف الحقائق ويسفك المِدَاد، فهل تجرؤ على القراءة؟ أم أنك، مثلهم، تخشى أن يُكشف عنك الغطاء، فتبصر ما لا قِبَل لك به؟



نقطة البداية

في بقعة نائية، لا تعرف طريقًا ولا يحملها اسم، كانت الأرض عارية من العشب والحياة، تربة جافة صلبة، بلون قاتم يميل إلى السواد، بدت كأنها لم تتنفس منذ زمن. الجو ثقيل، صامت، والهواء خفيف لدرجة يترك في الحلق مرارة حديدية. السماء ملبدة، والنجوم نادرة وباهتة، والقمر نصف مكتمل، ضوءه بارد لا يسعفه حتى ليعكس ظله.

وسط الدائرة، وعلى سطح الأرض مباشرة، رسمت نجمة سداسية كبيرة بخطوط محفورة بدقة. الأحرف التي تشكل اسم "مردخايل" حفرت حول محيطها بشكل متقن، وكأن اليد التي نفذتها لم تتردد. كل زاوية من الزوايا الست احتضنت شيئًا مختلفًا، موضوع بعناية وتوازن صارم لا يقبل العبث.

في الزاوية الأولى: رماد رمادي اللون، تفوح منه رائحة احتراق قديم، كما لو كان من مواد عضوية احترقت ببطء. بجواره كومة صغيرة من التراب الممزوج ببقايا أعشاب جافة.

الزاوية الثانية حملت خيطًا أحمر اللون، سميكًا قليلًا، ملفوفًا حول نفسه، طرفه مبلل بسائل داكن قد يكون دما.

في الزاوية الثالثة وضعت لؤلؤة باهتة بيضاء، مغطاة بطبقة خفيفة من التراب، كأنها انتزعت من صدر البحر وأُلقيت هنا لغاية واضحة.

الرابعة كانت موطن الإبرة، رفيعة ولامعة، غرس طرفها في الأرض بشكل مائل نحو المركز، وتبدو حديثة الاستخدام.

في الخامسة، استلقى السيف، قديم في شكله، لكنه مصقول، مقبضه مزين بنقوش غير مألوفة، وطوله لا يتجاوز نصف متر، موضوع بحيث يكون رأسه متجها إلى الأعلى.

أما الزاوية السادسة، فاحتضنت جمجمة بشرية صغيرة الحجم، لم تُنظّف، ولا تزال تحتفظ ببعض أثر الزمن، وفي داخلها وضعت خصلة شعر داكن مربوط بخيط.

في محيط النجمة، فُرش الكتاب. ضخم، جلدي الغلاف، مفتوح على صفحة بعينها، حروفها غير واضحة، لا لأنها رموز، بل لأنها مكتوبة بلغة غريبة غير متداولة. كل شيء في المكان يبدو حقيقياً، ومرتّباً، لا وجود للزينة أو الخرافة.

الطقس لم يبدأ بصوت، بل بفعل. اليدان ترفعتا بهدوء، الجسد استدار باتجاه الغرب أولاً، ثم دار دورة كاملة حول نفسه، متوازناً، كأن الخطوات محسوبة. لم يسمع همس، لكن الأنفاس تكررت بانتظام. عند أول خطوة داخل النجمة، غُرست الإبرة في راحة اليد اليمنى، بلا

تردد. الدم نزل، نقطة واحدة، سقطت على رأس السيف. لم يحدث شيء ظاهر، لكن الهواء تغير، أصبح أكثر دفئا، أقرب للاختناق.

ثلاث خطوات تلت، كل خطوة كانت تقترب من مركز النجمة. ثم توقّف الجسد عند منتصفها، وبدأ يرفع السيف إلى مستوى الصدر، ثم إلى الأعلى، بحركة واحدة هادئة. بعد ثوان، أنزل السيف فجأة، دون أن يضرب شيئا، وكأن ذلك الفعل وحده كافٍ.

عند هذه اللحظة تحديدًا، تحرك شيء في الجمجمة. لم يكن صوتًا، بل إحساسا بأن الجمجمة فقدت سكونها. لم ترتجف، لكن الهواء المحيط بها صار أثقل، وكأنها أصبحت نقطة مركزية في المكان. لم يصدر دخان، ولا نار، ولا انفجار، بل شعور متصاعد بوجود جديد، لا يعرف مصدره، لكنه محسوس في الصدر، كالخوف عندما يسبق وقوعه بأقل من لحظة.

الساعة قاربت منتصف الليل. لا حركة في الأفق، لا أصوات سوى تكرار أنفاسها المتوترة، يعلو ويهبط كأنه يسبق ضربات قلبها بخطوة. عهد، الواقفة في وسط الدائرة، لم تعد كما كانت. لم يكن في ملامحها شيء يدل على التردد أو الحيرة. وجهها شاحب لكن مشدود، كأن جلدها التصق بالعظم. أنفها الدقيق جفّ من الهواء، وشفاهها نصف مفتوحة، ينفلت منها صوت كأنما يُجر من بئر لا قاع له.

تلبس ثوباً أسود، خالٍ من الزينة، عاري الأكمام، مفتوحٌ عند الكتفين حتى الترقوة، لا تزيّن عنقها قلادة، بل حبل خفيف يثبت الإبرة الحديدية الثقيلة التي تتدلّى وتضرب صدرها مع كل حركة. يدها اليمنى ترتجف بشكل خفيف، لكن الأصابع مشدودة حول السيف الموضوع أمامها. تنحني أحياناً، تقرب جبينها من الأرض، ثم تعود إلى وقفتها الأولى.

وجهها مشدود، وعيناها ثابتتان لا تبحثان عن شيء خارج الدائرة، بل تراقبان ما يحدث داخلها. النظرة فيها شيء حادّ، غامض، لا يمكن وصفه بالحزن أو الغضب، بل أقرب إلى اليقين البارد. مزاجها لا يشبه الجنون ولا الحماسة، إنما هو تصميم ثقيل يسحب من روحها نفسها ويضغطها دون رحمة.

تمتماتها لا تتوقف. مقاطع متكررة، ليست عربية ولا أعجمية، بل شيء بينهما. تقولها كما لو أنها تحفظها منذ زمن، كما لو أنها لا تفكر في معناها بل تؤديها كما أُمرت:

"إيل مارخا، إيت أورا، ليم سوخ، آنا باروخ، مردخايل... مردخايل... مردخايل"...

تقول الاسم الأخير بثقل، وكأن الأرض تحته تنجاوب معه. الهواء صار أكثر لزوجة، كأن من في المكان بدأ يشعر بأنه داخل سائل كثيف

لا يمكن التحرك فيه بسهولة. النجمة على الأرض بدأت تومض بخفة، ثم ارتفعت حرارتها فجأة، وتصاعد منها بخار اسود باهت.

عهد لم تتوقف. لكن ما لم تكن مستعدة له أنها نطقت حرفًا خاطئًا. بسيط، حرف واحد فقط، بدّل الترتيب. ارتجّت النجمة في الأرض، وصدرت من الجمجمة في الزاوية تشقيرة قصيرة كأنما صدع داخلي.

شعرت فجأة وكأن شيئًا ما يسحب منها، ليس جسدها بل ما هو أعمق. يداها لم تعودا لها. قدماها لم تعد تثبتان. لم تسقط، لكنها شعرت كما لو أن ظهرها صار خفيفًا، ثم ثقيلًا، ثم... فارغًا.

في اللحظة التي تلت، عرفت أنها على وشك الاختفاء من الوجود لذا اتخذت أسوأ قرار لها، قامت بتلاوة تعويذة الانشطار، في سبيل النجاة. شعرت بأن صدرها انفتح من الداخل. لا دماء، لا جرح ظاهر، بل تمزق روحي واضح كمن ينتزع من نفسه. حاولت أن تتكلم، أن تصرخ، أن تتراجع. لم تستطع. شعرت أنها تفقد السيطرة على ما تحت جلدها.

الانشقاق لم يكن صاخبا. لم يكن مثل انفجار. بل حدث كما يحدث الصدع في الزجاج. فجأة، وجدت نفسها تنظر إلى نفسها من الخارج. هي ما زالت في الدائرة، تركع، تتنفس، لكن هناك منها شيء ارتفع. لا وزن له، لا ظل له، لا رائحة له. لكنه يعرف كل شيء.

نصفها الأول، المادي، الذي حفظ الملامح والصوت والدم، استقر في الجسد الممدد لاحقًا على فراش المستشفى. ذاك الذي أصبح اسمه "سيرين"، يحمل نصف الذاكرة، ونصف الألم، ونصف التفسير.

أما النصف الآخر، فقد بقي فوق الرماد، بلا شكل، بلا صوت، لكنه لا يرحل. كان ذلك النصف هو عهد. حضور لا يمكن مسه، ولا تجاهله. لا يعرف الزمن، ولا يعيق المكان. يتنقّل بين لحظة وأخرى، يلتصق بالأحداث، يسمع، يرى، ويبحث عن طريقٍ غير مكتمل.

النجمة السداسية خمدت، والخطأ لم يقتلها، لكنه لم يُبقها كاملة، كما جعلها تائهة بين مختلف الأزمنة تبحث عن مخرج، عن حَل، تشهد كل لحظة، تنتظر الولادة من جديد.



الفصل الأول

الهاريمونيا السوداء



لم يكن في الأمر مصادفة، بالأحرى كان ضربا من اللغز الغابر الذي استعصى على الفهم. كل من حاول عزف اللحن المجهول بلغ موضعا واحدًا ثم أُسدل على وجوده الحجاب، فلا وجد له جسدٌ، ولا وجدت له نفس تلهث بين الأحياء. النغمة الأخيرة لم تُسمع قط، لأنها لا تُعزف إلا بمن يأخذها قربانًا.

"جلال"، الباحث في الموسيقى الضاربة في القدم، لم يكن يؤمن بالخرافات، رغم انه على معصمه خيطٌ أحمر، لا يفارقه أبدًا، ظل متمسكًا به دون أن يدري لمَ التصق به هذا الخيط، ولا لماذا يسكنه هذا الحرص الغامض عليه، كأنما كان عهدًا خفيا لا يجرؤ على نكثه.

لكن المصادفات المتكررة أرغمته على التريث. كانت جميع التسجيلات الموسيقية التي جمعها تشترك في أمر واحد: هناك نغمة ناقصة، كأن يد العازف قد خذلته في لحظة الحسم، أو كأن آلة الزمن ذاتها انتزعت منه أنفاسه قبل أن يخطو خطوته الأخيرة.

ولأنه رجل من أهل العناد، قرر أن يواجه الحقيقة بنفسه. في غرفة مغلقة، أشعل المصباح الزيتي، وضع الأسطوانة النادرة على جهاز الفونوغراف، وأدار العجلة. النغمة الأولى انطلقت رخيمة كحفيف الأشجار ساعة السحر، الثانية جاءت كسريان ماء في مجرى خفي، الثالثة حملت معها شيئًا لم يفهمه، كأن الهواء قد تكاثف في صدره، كأن

عيونًا لا تُرى قد أحاطت بمجلسه، وكأن شيئًا ما ينتظر الخطوة الأخيرة ليمد يده من وراء الغيب.

عند تلك اللحظة، توقف التسجيل... لكن الصوت لم يتوقف.

وقف "جلال" في غرفته المظلمة، لا يضيء المكان إلا وهج مصباحه الزيتي المرتعش. كان الجهاز القديم يدور ببطء، يصدر خشخشة خفيفة قبل أن يطلق النغمة الأولى... ثم ظهرت النغمة الأولى... صوت أشبه بأنين الهواء داخل معبد فارغ.

النغمة الثانية... بدا وكأن شيئًا يفتح، باب صدئ يتحرك وحده.

النغمة الثالثة... ضربات بطيئة، كأنها خطى تُسمع من مكان بعيد.

" وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا..." (الأعراف: 179)

ربما كانت "الهارمونيا السوداء" ليست سوى تجربة لفتح السمع على ما لا يجب أن يسمع. فالآذان ليست مجرد وسيلة للسمع... إنما هي أبوابٌ لما وراء الإدراك.

شعر بأن الغرفة ضاقت، كأن الجدران اقتربت نحوه ولو بقدر شعرة. كانت هناك برودة تزحف في عموده الفقري، لكنها لم تكن برودة طبيعية، كانت أشبه بإحساس الغريق حين يدرك أن قدميه لم تعد تلمس القاع.

توقّف التسجيل. لكن الصوت لم يتوقف. كانت هناك خشخشة خلفه، أنفاس ثقيلة لم تكن تخصه، ونبض لم يكن نبضه. مدّ يده ليطفئ الجهاز، لكن أصابعه لم تطاوعه، وكأنها تيبست فوق العجلة الدوارة. ارتفع الصوت أكثر، لم يعد مجرد صدى، بل صار كأنه كائن حي يتحرك في الغرفة.

التفت بسرعة، لكن لم يكن هناك أحد. إلا أن هناك شيئًا واحدًا تغيّر... المرآة العتيقة أمامه، لم تعد تعكس صورته. في الواقع تعكس رجلاً آخر، له ملامحه، له وجهه، لكن عينيه... كانتا سوداوين تمامًا، كأنهما نفقان يقودان إلى فراغ لا نهاية له. لم تكن انعكاسًا له، نعم كانت تنظر إليه مباشرة، تراقبه كما يراقب هو نفسه.

تحركت شفتا الانعكاس، لكن الصوت ليس صوت "جلال". بل كان صوتًا مزدوجًا، كأن حنجرتين تحدثتا معًا في آن واحد: لا يجب أن تسمعها"...

شعر ببرودة تتسلل إلى عظامه، كأن شيئًا ما انتزع منه حرارة جسده. حاول أن يبتعد، لكن قدميه التصقتا بالأرض. لا بوسعه أن يتحرك، ولا بوسعه حتى أن يصرخ.

امتدت يد الانعكاس نحوه، ببطء، خرجت من المرآة كأنها بابا بين عالمين. الأصابع كانت سوداء، طويلة، تخرج منها خطوط كخيوط دخان يبتلع النور حوله.

"أتمم اللحن، أو استبدل بك...لأنه ليس لحنك وحدك"

كانت الجملة الأخيرة أشبه بحكم قُضي به. شعر بدمه يتراجع، بجسده ينهار إلى الداخل، كأن كل شيءٍ فيه بدأ يتلاشى. كان لا يزال يسمع النغمة الأخيرة، صادرة من صدره، من نخاعه، كأن جسده نفسه صار آلةً تُعزف بها المقطوعة.

في تلك اللحظة، انطفأ المصباح، وسقط جلال أرضًا.

عندما أشرقت الشمس، كان باب الغرفة لا يزال موصدًا من الداخل. لم يسمع أحد صوتًا، ولم يخرج جلال منها قط. وحين اقتحمت الغرفة بعد أيام، لم يكن فيها سوى الفونوغراف، يدور ببطء، يصدر آخر نغمة من المقطوعة...

أما جلال، فلم يكن هناك. لكن في الليل، حين هم أحد الباحثين بإيقاف التسجيل، سمع أنينا خافتا، قادما من الفراغ، كأنه همس شخص ما يحاول أن يتكلم...

"أنا هنا"... عندما اقتحموا غرفة "جلال"، لم يكن هناك جسد، لم يكن هناك أثر يدل على أنه خرج أو اختفى. كانت النافذة مغلقة، والباب موصدا من الداخل، والمصباح قد انطفأ دون أن ينكسر. لكن كان هناك شيء آخر... كان الفونوغراف يدور، وإن لم يلمسه أحد.

حاول "إياد"، زميل جلال في البحث، أن يوقف الآلة، لكن يده تراجعت دون أن يدرك السبب. كان شعورا غامضا بأن هذه الآلة لم تعد مجرد جهاز، أضحت نافذة تطل على شيء آخر.

ثم سمعوه لأول مرة . كان الصوت خافتا في البداية، كأن أحدهم يتنفس داخل الغرفة رغم أنها كانت فارغة. نغمة غير مكتملة، ترددها الجدران دون أن يكون لها مصدر. بدا كأن جلال لم يختف... صار جزءا من اللحن نفسه.

"أنا هنا"... لم تكن جملة تُقال، كانت تُغنى، بنفس الإيقاع الذي سمعه جلال قبل اختفائه. لكن الصوت لم يكن وحده، فقد كانت هناك همسات أخرى تتداخل معه، همسات مختلفة النبرات، كأنها أصوات أناس آخرين، سبقوا جلال في اختفائهم.

تراجع إياد ببطء، لكنه شعر أن الهواء من حوله صار أثقل، كأن الجدران تتنفس معه. ثم، دون أن يلمسها أحد، تحركت المرآة العتيقة في الغرفة. لم تعد مجرد سطحٍ زجاجي، أصبحت شاشة مظلمة، تنعكس عليها صور مشوهة، وجوه لا يعرفها، عيون تراقب من خلف حجاب كثيف من الفراغ.

ثم ظهر جلال. كان واقفًا داخل المرآة، لكنه لم يكن كما كان. ملامحه بقيت كما هي، لكن هناك شيء ناقص، شيء زحزح عنه. عيناه كانتا مليئتين بالفراغ، لكن شفتيه تحركتا ببطء، بلا صوت، كأنه يحاول قول شيء لم يعد يستطيع نطقه.

ثم، ولأول مرة، تحرك. لم يكن انعكاسا، لم يكن صورة، كان هو، لكن داخل شيء آخر. رفع يده ببطء، مشيرا إلى الفونوغراف، وكأنه يريد إكمال شيء لم يكتمل.

ارتعش إياد، لكنه لم يكن قادرا على الحركة. شعر أن هناك أمرا لم يُحسم بعد، أن جلال لم يُمحَ تمامًا، ظلّ عالقًا في مكان ما بين الصوت والصمت، بين النغم والعدم. ثم صدحت النغمة الأخيرة. لم يكن إياد من ضغط الزر، ولم يكن الجهاز قد عاد للدوران، لكنها انطلقت وحدها، كاملةً هذه المرة، بلا نقصان.

وفي اللحظة التي صدح فيها اللحن الأخير، انطفأت كل الأضواء. وعندما عادت...لم يكن في الغرفة أحد. لا إياد، ولا جلال،

ولا حتى المرآة. كان هناك فقط الفونوغراف، يدور وحده، يصدر خشخشةً هادئة، كأن شخصا يهمس داخلها.

وفي اليوم التالي، حين دخل أحد الخدم الغرفة، وجد أن آلة التسجيل قد تغيرت. لم تعد تحمل اسم "جلال" أو أي من الباحثين... كُتب عليها، بنقش لم يكن موجودا من قبل: "الضحية الأخيرة ليست الأخيرة بعد"...

في الليلة التي تلاشت فيها آثار "إياد"، ظلّت الغرفة مغلقة، كأن أحدًا لم يكن فيها قط. ولا ما يشير إلى دخول أو خروج أي شخص، وكأن الجدران ابتلعت كل شيء. لكن في الصباح، حين أتى البواب ليتفقد المكان، وجد باب الغرفة مواربا، رغم أنه كان متأكدًا أنه أغلقه بإحكام.

تردد للحظة قبل أن يدفع الباب ببطء، متوقعا الظلام المعتاد، لكن ما رآه كان أشد وطأة من أي ظلام. كانت الجدران... مشققة شقوقًا غير عادية، خطوط ممتدة كأن أحدًا خدشها بأظافر حادة، بخطوط تترنّح بين أنماط موسيقية غير مكتملة. على الطاولة، ظل الفونوغراف في مكانه. كانت الإبرة تتحرك على سطح القرص الأسود، رغم أن القرص نفسه لم يكن يدور.

ثم خرج الصوت. لم يكن موسيقى، لم يكن همسا، شيئًا بينهما. كان ترديدًا لنفس الجملة التي سمعها إياد من قبل:

"أنا هنا"...

لكن هذه المرة، لم يكن صوت "جلال" وحده. كان هناك أكثر من صوت، أصوات تتداخل، بعضها أجش، بعضها رقيق، وبعضها يخرج مشوهاً كأن صاحبه يتحدث من تحت الماء. كانت نغمات متنافرة، كأنها تختبر الأذن البشرية، تحاول أن تتقن لغة البشر لكن دون أن تفهمها تماما.

تراجع البواب مرتعداً، لكن قبل أن يصل إلى الباب، بدأ الهواء في الغرفة يتثاقل. كأن المكان نفسه يريد أن يُحكم قبضته عليه، كأن الصوت الذي انطلق من الفونوغراف ليس مجرد تسجيل، استدعاء.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان. انعكست الظلال أو ما بدا وكأنه ظلال على الجدران، لكنها لا تبدو انعكاسات طبيعية. لا تتبع شكل الأجسام الموجودة في الغرفة، كانت تتحرك بذاتها، تُعيد تمثيل مشهداً قديماً: شخص جالس أمام البيانو، يضع أصابعه على المفاتيح، ثم يتردد للحظة، قبل أن يعزف النغمة الأخيرة...

وفي اللحظة التي تصدح فيها النغمة، تنحني الظلال إلى الخلف، كأنها تبتلع نفسها في الفراغ. فما يثير الرعب أكثر من المشهد نفسه، هو أن البواب لم يكن يرى هذا في المرآة. كان يراه في الهواء، كأن الجدران نفسها قد تحولت إلى شاشة عرض لمشهد من الماضي، أو ربما

لمشهد لم يحدث بعد. وفجأة، دوّى صوت قرع ثلاثي متتال على الجدار، كأن أحدًا يطرق من الداخل.

" دعنا نكمل... اللحن لم ينته بعد".

في تلك اللحظة، انطفأت الأنوار. وحين عاد الضوء، كانت الغرفة فارغة، لا بواب، لا فونوغراف، لا شيء.. في أرجاء القصر المهجور، ظل الصمت معلقًا كوشاح ثقيل، لكن الصمت لم يكن كاملًا. كان هناك ذلك النغم الخافت، يتسلل عبر الجدران، كأنها لم تعد تفصل بين الغرف، بين العوالم.

لا وجود هناك أثر للبواب، ولا لإياد، ولا حتى لجلال. اختفوا كما لو أنهم لم يوجدوا قط، لكن القصر لم ينساهم. في الليلة التالية، عندما حل الظلام مجددًا، تسلل رجل آخر إلى القصر. لا باحثًا مثل جلال، ولا زميلًا مثل إياد، كان مجرد لص يبحث عن شيء ذي قيمة. سمع عن المكتبة المهجورة والمخطوطات القديمة، عن القطع الأثرية التي لم يجرؤ أحد على لمسها منذ قرن. لم يكن يصدق القصص عن اللحن الملعون، ولا عن الذين اختفوا، لكنه كان يعرف أن الأشياء القديمة تساوي الذهب، خاصة عندما تكون محاطة بالرهبة.

دلف إلى القاعة الكبرى، متلمسًا طريقه في الظلام. كانت رائحة العتق تملأ المكان، رائحة الورق القديم والخشب الذي تآكله الزمن. مرر يده على أحد الأرفف، فوجدها مغطاة بطبقة كثيفة من الغبار،

لكنها لم تكن الغبار العادي... كان ملمسها ناعما بطريقة غريبة، كأنها رماد خفيف، كأن شيئا قد احترق هنا دون أن يرى أحد ناره.

ثم لمحها. في الزاوية، بين كومة من الكتب المتناثرة، كان هناك شيء لم يكن يجب أن يكون هناك: الفونوغراف. رغم مرور سنوات، رغم اختفاء كل من لامسه، كان الجهاز لا يزال في مكانه، منتصبا كحارسٍ ينتظر من يجرؤ على لمس إبرته.

تردد اللص للحظة، لكنه لم يكن رجلاً يخاف من الأشياء التي لا يراها بعينه. مدّ يده إلى الذراع المعدنية، رفعها ببطء، ووضعها على القرص.

في البداية، لم يكن هناك شيء. ثم خرج الصوت.

لم تكن موسيقى، لم يكن لحنا مكتملًا، بل كانت همسات، متناثرة، مبعثرة بين الصمت.

"لا تعزفها"... تجمدت أنفاسه. الصوت لم يكن من الفونوغراف فقط، بل كان حوله. فوقه، تحته، داخل جدران القاعة، بين صفحات الكتب، في كل شقٍ في القصر.

"اللحن لم يكتمل"... ثم... بدأت الأضواء تهتز.

لم يكن هناك مصابيح، لم تكن هناك نوافذ مفتوحة، لكن شيئا ما أضاء، كأن الظلام نفسه انشق ليكشف عما تحته. على الجدران، انعكست ظلالٌ تتحرك، لكن الغريب أنها لم تكن ظلال اللص. كانت ظلال أشخاص آخرين. رجال ونساء، وجوه لا تبدو ملامحها بوضوح، واقفة في صمت، كأنها تنتظر شيئا.

ثم دوت النغمة الناقصة. لم يكن اللص هو من عزفها، ولم يكن الجهاز هو من أطلقها، كانت قادمة من كل مكان، من كل زاوية في القصر، من شق في الأرضية والجدران، من صفحة في الكتب التي لم تعد تحمل كلماتٍ، بل تدوينه موسيقية ناقصة.

حاول اللص أن يتحرك، لكن قدميه لم تستجيبا. كان الهواء كثيفًا حوله، كأنه عالق في بئر من صوت لا يسمعه إلا هو. ثم، في طرف الغرفة، في المرآة العتيقة، تحرك شيء. لم يكن انعكاسه، كان شخصا آخر. رجل بملامح مألوفة، بملابس قديمة، بشيء ناقص في عينيه.

"جلال"...لم يتحرك الرجل في المرآة، لكنه رفع يده، وأشار إلى الفونوغراف. كان اللص يعلم أنه يجب أن يهرب، أن يجري بأقصى ما لديه، لكنه لم يكن قادرا. شيء ما كان يفرض عليه أن يبقى، أن يسمع، أن يكمل اللحن الذي لم يكتمل.

ثم همس الصوت من جديد، لكن هذه المرة، كان أقرب، كان خلفه مباشرة. "الضحية الأخيرة... لم تكن الأخيرة بعد". وعندما

أشرقت الشمس في اليوم التالي، كان القصر كما كان دائما، صامتا، مهجورا.

لكن الفونوغراف...كان يدور وحده. لم يكن اللص الضحية الأخيرة.

بعد أيام من اختفائه، جاء رجال الشرطة. لم يكونوا مهتمين بالقصص القديمة، ولم يؤمنوا باللعنات أو الألحان التي تبتلع العازفين.

كانوا يبحثون عن رجلٍ مفقود، مجرد مجرم آخر اختفى في المكان الخطأ.

دخلوا القصر في الصباح، عندما كانت الشمس مشرقة، عندما لم يكن هناك ما يخيف سوى الغبار والركام المتناثر. وجدوا آثار أقدام حديثة، عرفوا أنه كان هنا، لكن لم يجدوا جسده. وجدوا الفونوغراف يدور رغم أن أحدًا لم يلمسه، يصدر خشخشةً هادئة، كأن شخصا ما لا يزال يهمس داخله. حاول أحد الضباط رفع الذراع، لكنه شعر ببرودة غريبة في أطراف أصابعه. تراجع، لكنه لم يذكر الأمر. لم يرد أن يبدو كالأحمق الذي يخاف من آلة قديمة. ثم، عندما فتشوا القاعة الكبرى، وجدوا شيئا آخر.

وجدوا مرآة نظيفة، رغم أن الغبار غطّى كل شيء في القصر. بدا زجاجها داكنا أكثر مما يجب، كأنها لم تكن تعكس الصورة، بل تخفي ما خلفها. اقترب أحد الضباط، نظر فيها، ثم تجمد. كانت هناك وجوه.

ليست وجوهه هو أو زملائه، وجوهٌ أخرى، وجوهَ رجال ونساء، وجوهٌ تراقب بصمت، وجوهٌ فقدت ملامحها، كأن شيئًا نُزع منها، كأنها لم تعد بشرية بالكامل. ..في قلب تلك الوجوه، كان هناك رجل واحدٌ فقط وقف أمامهم مباشرةً.

"جلال". كان لا يزال هناك، لا يزال عالقًا بين المرآة وما خلفها. لكن هذه المرة، كانت هناك كلمة تُكتب على سطح الزجاج، ببطء، كأن يدًا غير مرئية كانت تخطّها من الداخل.

"أكملوا اللحن".

كانوا مجرد رجال شرطة، لا يفهمون معنى ما رأوه، لكن شيئًا ما في أعماقهم جعلهم يتراجعون. لم يكونوا بحاجة لتفسير. فهموا أن القصر لم يعد مكانًا مهجورا، صار شيئًا يبتلع من يدخله.

قرروا المغادرة ولم يأخذوا الفونوغراف، لم يكسروا المرآة، لم يبحثوا عن اللص أكثر. غادروا قبل غروب الشمس، وأغلقوا الأبواب خلفهم، وأصدروا تقريرا رسميا يقول: "لم يتم العثور على أثر للمشتبه به، ولا توجد دلائل على وجود نشاط إجرامي في القصر. يوصى بعدم دخول المبنى حرصا على السلامة". لكن بعد أيام، في قسم الشرطة، عندما حل منتصف الليل، انطفأت جميع الأضواء للحظات.

وفي ذلك الصمت الخافت، قبل أن تعود الأنوار، انطلق من أحد أجهزة الراديو المهجورة في الزاوية... لحن ناقص. ثم، همسةٌ بالكاد سمعها أحد: أنا هنا".



الفصل الثاني

غابة ترايننغل



أطل الصبح على بلي وهي في مضجعها، تسلل النور من نافذتها، يغمر محياها بضياء خافت، كأن النهار يختبر صبرها على يوم جديد. فتحت عينيها على مهلٍ، كأنها تنفض عن نفسها أثر حلمٍ ثقيل، ثم نهضت تتأهب للخروج، مستقبلة يومها بعزم لا يلين.

أخذت ماءً دافئًا يغسل تعب الأمس، ثم جلست إلى إفطارٍ خفيف، لا تأكل بشهية من أرهقها التفكير، لكن الجوع لم يكن يثقلها كما أثقلها ما يتربص بها في دربها الجديد. حملت كتبها، غادرت، ماضيةً نحو الجامعة بخطًى ثابتة، تحمل في صدرها ما لا تحمله يداها.

كانت المحاضرة كغيرها، أصوات المعلّمين ترتفع وتنخفض، وجوه الزملاء تتفاوت بين من ينظر إليها وكأنها لا تستحق أن تكون بينهم، ومن يتجاهلها كأنها غير مرئية. لكن شيئًا ما كان مختلفًا في هذا اليوم، إحساس لم تستطع تفسيره، كأن الهواء حولها أثقل قليلًا، كأن العيون لم تعد تتجاهلها تمامًا، بل تراقبها من بعيد.

عند انتهاء الدرس، جمعت كتبها، وخرجت من القاعة تمضي نحو البوابة الكبيرة. سارت ببطء، تحمل على كتفيها ثقل الأيام الماضية، لكنها لم تسمح له أن يعرقلها. ثم، فجأة، اخترق سمعها صوتٌ ناداها: "بلي... بلي"!

توقفت، التفتت سريعًا، تقلب بصرها بين الوجوه. كان الصوت واضحًا، لم يكن صدى ولا وهمًا، بل صوتٌ نُطق باسمها، نغمةٌ لا

تخطئها أذناها. ثم رأتها. واقفةً على الجانب الآخر، تنظر إليها بثبات، وعلى شفتيها أثر ابتسامة لم تكن عابرة، كانت أشبه بإشارة إلى شيء، رسالة لم تفهمها بعد.

من تكون؟ ولماذا بدت وكأنها تعرفها أكثر مما تعرف نفسها؟

ما إن التفتت "بلي" إلى مصدر النداء، حتى وقعت عيناها على فتاة تماثلها سنًّا، مشرقة المحيا، بيضاء البشرة، تتورد وجنتاها بحمرة الحياة، ذات عينين واسعتين كأنهما مرآتان تعكسان عيون غزال الريم، ينسدل شعرها الأسود القصير كأجنحة الغراب في تناسق يغمر وجهها بهالة من الوضوح والجمال. لم تكن غريبة عنها، وإن لم تلتقيا من قبل، فقد تردد اسمها في أروقة الجامعة مرارا، حتى صار مألوفًا لها. إنّها "ماري"، ابنة جلدتها، عربية مثلها، جاءت بها الأقدار إلى هذا المكان لتكون لها نديمًا في غربتها.

أشرقت ابتسامة دافئة على شفتي "بلي"، وهي تقول بترحاب ودهشة:

" مهلًا! أأنت عربية؟ ما أعجب الحظ أن يضع في دربي من يشاركني اللسان والهَوية! لكن... أهناك أمر ما؟"

لم تجب "ماري" على الفور، بل مدت يديها برفق، تطوق كفّ "بلي" بين راحتيها، وقالت بنبرة ودودة:

–" لم لا نذهب إلى المقهى المجاور؟ نتحدث على مهل ونتعارف أكثر".

أومأت "بلي" برضا، وقالت:

–"لمَ لا؟ فلنمضِ إذن".

سارتا معا نحو المقهى، وهناك، ولدت صداقة جديدة، أشعرت "بلي" بأن شيئا من الثقل الذي كان جاثمًا على صدرها قد بدأ يتلاشى. في حديث "ماري"، وجدت صدقًا لم تعهده منذ أن وطأت أرض هذا المكان، وفي وجودها شعرت بشيء من الأمان، كأنها قد عثرت أخيرا على ركن تستند إليه وسط عاصفة الغربة. وما إن اطمأنت روحها، حتى أفضت إلى "ماري" ببعض ما يعتمل في صدرها عن زميلاتها في السكن.

تأملت "ماري" كلامها مليًّا، ثم قالت بنبرة تملؤها الجدية والحنان:

–" أعلم أن ما تمرين به ليس بالأمر الهيّن، فأن يجد المرء نفسه وحيدًا وسط بيئة غريبة، تتقاذفا النظرات والأحكام. لكن ثقي أنك لست وحدك، ففي هذا المكان قلوب تتسع لفهمك، وأنا هنا، إنَ احتجت إلى أن تسمعي صوتًا يذكّرك بأنك قادرة على اجتياز كل هذا".

ارتسمت على شفتي "بلي" ابتسامة امتنان، وقالت بصوت يشف عن شيء من الراحة: "

لست على دراية بمدى أثر كلماتك في نفسي. كنتُ بأمسّ الحاجة إلى شخصٍ يفهمني، يشعرني بأنني لستُ غريبة تمامًا. أشكرك من صميم قلبي".

– شدّت "ماري" على يدها بلطف، وقالت:

" أعلم أن الأيام القادمة ستحمل لك ما يبدد هذه الغمّة، لكن حتى يحين ذلك، لا بد لك من حسن التدبير في التعامل مع زميلاتك في السكن. لديّ بعض النصائح التي قد تعينكِ".

رفعت "بلي" حاجبها باهتمام، وقالت: " ـــأنا مصغية، أخبريني بها".

ابتسمت "ماري"، وقالت:

–" أولًا، لا تجعلي الجفاء الذي يظهر على وجوههن حاجزًا بينك وبينهن، فالناس أعداء ما جهلوا، وحسن المعاملة مفتاح القلوبَ المقفلة".

ثم أضافت:

–" ثانيًا، ابحثي عن خيط وُدٍ بينك وبينهن، قد يكون هوايةً مشتركة، أو اهتماما يجمعكن، فالبشر يَميلون إلى من يجدون فيه انعكاسا لذواتهم، ولو في أمر يسير".

ثم نظرت إليها نظرة عميقة، وقالت:

–" وأخيرًا، لا تجعلي أعراضهم عنك يولّد في نفسك قسوة، فليس كل ما يرى على ظاهره يعكس الحقيقة، ربما يخفين وراَء تلك المظاهر قلقًا أو مخاوف، والتسامح أبلغ سلاح تواجهين به هذه المعركة".

أضاء وجه "بلي" ببسمة صافية، وقالت بإصرار:

–"حقًّا، حديثك يبعث في نفسي الطمأنينة، وسأجعل كلماتك نبراسًا لي فيما هو قادم. ممتنة لك، وأشعر أني أكثر حظًا الآن بوجودك إلى جانبي".

وهكذا، لم يكن ذلك اللقاء مجرد بداية لصداقة عابرة، بل كان نقطة تحول ستقود "بلي" إلى درب أكثر إشراقًا، في أرضٍ بدت لها موحشة في بادئ الأمر، ثم أزهرت بوجود من يبدد وحشتها.

احتضنتها "ماري" بحرارة، وهمست قرب أذنها بثبات:

–" لست وحدك بعد اليوم، سنكون يداً بيد، نخطو معاً فوق كل العقبات، ونصنع من أيام الجامعة ذكرى لا تنسى".

استشعرت "بلي" في كلماتها دفئاً لم تعرفه منذ زمن، وأحست أن في هذه الصداقة بصيص أمل يبدد وحدتها. وعلى مدار الأيام التالية، أخذت تعمل بنصائح "ماري"، تجاهد لتحسين علاقتها بزميلاتها في السكن، وتبذل جهدها في التقرب منهن، حتى بدأت تلمس تغيرا، وإن كان بطيئاً، في سير الأمور.

عادت "بلي" إلى السكن الجامعي بعد يوم مفعم بالحيوية، فتحت الباب وألقت التحية على زميلاتها بابتسامة مشرقة، ثم مضت إلى غرفتها، علّها تحظى بقليل من الراحة. وما كادت تسترخي حتى دوى صوت الباب يفتح دون استئذان، فتطل منه إحدى زميلاتها، تقف متكئة عند العتبة بعينين تضيقان سخرية، قائلة بنبرة متعالية:

–" أخيراً عدت، أم هذا دأبكم في بلادكم؟ التأخر بلا اكتراث؟"

ثم أردفت، وهي تطلق ضحكة هازئة:

–"لم أكن أعلم أنكم متعالون لهذه الدرجة! تقضون يومكم غير مبالين بمن حولكم، صدق من قال: العرب لا يرون إلا أنفسهم."

ثم أغلقت الباب بقوة، كأنها تودّ لو تُحكمه خلفها إلى الأبد. وقفت "بلي" في موضعها، كأن ريحا باردة اجتاحتها، لم يكن وقع

الكلمات هو الأشد إيلاما، بل الإحساس العميق بأنها دخيلة بينهم، أن وجودها ليس مرحبا به مهما حاولت. أطفأت الأنوار، واستلقت في سريرها، تدفن وجهها بين الوسائد، لكن الدموع فضحت ما كانت تحاول كبته، تنساب على وجنتيها كأنها تغسل بها مرارة التجربة.

استيقظت "بلي" مثقلة بالخيبة، لكن حديث "ماري" ترنح في ذهنها، يذكّرها بأن الصبر سبيل العبور. قررت ألا تُظهر ضعفها، وان تمضي في محاولاتها، عل الأيام تهديها طريقًا أفضل.

وحين التقت الفتاة ذاتها في الممر، حيتها ببشاشة قائلة:

–"صباح الخير! أتمنى لك يومًا لطيفًا".

لكن الفتاة أرقمتها بنظرة ازدراء، وردّت بجمود:

" لستَ بحاجة إلى أمنياتك، احتفظ بها لنفسك."

في تلك اللحظة، أيقنت "بلي" أن المساعي التي بذلتها لم تكن سوى محاولات يائسة لزرع وردة في صحراء قاحلة، وأن لا مكان لها بينهم مهما حاولت. لكنها لم تكن تدري ما العمل؟ إلى أين تمضي إن كانت الأبواب كلها مؤصدة في وجهها؟

سارت إلى الجامعة غارقة في دوامة أفكارها، حتى التقت بـ"ماري"، التي سرعان ما لاحظت اضطرابها. سألتها، فأفضت إليها "بلي" بحزنها، فما كان من "ماري" إلا أن قالت بحزم:

-" لم لا تأتين للمكوث معي؟ سنتشارك الأوقات الجميلة، نذاكر معا، نقرأ، نعيش أيامنا بسلام، دون الحاجة لاحتمال الجفاء والعدوانية"!

نظرت إليها "بلي" وقد لمعت في قلبها بارقة أمل، لكنها لم تجب، فقد أرادت أن تمنح نفسها فرصة أخرى للتفكير.





انقضى النهار، وعادت "بلي" إلى مسكنها، لتجد الأبواب مؤصدة، وصدى طرقاتها يتردد في الفراغ بلا استجابة. ظلت تقرع الباب مرارا، دون جدوى، حتى تلاشى الأمل من عينيها شيئا فشيئا.

أحست بغصة الوحدة، وبأنهم ربما تعمدوا تركها خارجا. ألقت نظرة يائسة حولها، علها تجد مفتاحا أو دليلًا على وجودهم، فلم تجد شيئا. خطت بعيدًا عن الباب، مترددة بين البقاء والرحيل، حتى استقر بها المطاف على مقعد في الحديقة القريبة، تجلس تحت ضوء المصباح الخافت، تستسلم لأفكارها.

حدثت نفسها:

-"هل أتصل ب- "ماري" وأطلب منها المأوى؟ لكن الوقت متأخر... قد تكون نائمة، لا أريد أن أثقل عليها...

قررت الانتظار، تقنع نفسها أنهم لن يتركوها هكذا، لا بد أنهم سيعودون، سيعتذرون، ستتغير الأمور. لكن كلما مرت لحظة دون أن يظهر أحد، تلاشى هذا الأمل.

هبت الريح الدافئة تحمل في طياتها أنين الليل، ثم تساقطت قطرات المطر، كأن السماء تبكي حزنها. وسط هذا المشهد، لم تعد تحتمل، انفجرت بالبكاء، تصرخ في صمت الطبيعة، تفرغ كل ما احتبس في داخلها، حتى خارت قواها واستسلمت للباس الوجع، تحت سماء لم ترأف لحالها، وعلى مقعد لم يُخلق ليكون فراشًا، لكنها لم تجد لها ملجأ غيره في هذه الليلة الباردة.

استفاقت "بلي" على دفء الشمس يتسلل عبر جفونها المغلقة، كأنما يدعوها للنهوض بعد ليلة عاصفة، احتضنتها فيها الأرض بدل الفراش، وألفتها فيها السماء بدل السقف. فتحت عينيها على ضوء النهار الواضح، تجتاحها لحظة من التيه بين الحلم واليقظة، حتى أدركت أين هي، في زاوية من الحديقة، تحت شجرة تنثر أوراقها في الريح الهائمة.

كان ثوبها مثقلًا برطوبة الليل، وشعرها مبعثرا بفعل الريح، أما وجهها، فكانت تجف عليه آثار دموع لم تجف في قلبها بعد. لم يطل بها الشرود حتى تقدّم نحوها بعض المارة، وجوه غريبة ولكنها مفعمة بالإنسانية، امتدت إليهم نظراتها الحائرة، فمدّوا لها أيادي العون،

وأحاطوها بكلمات لم تميزها في بادئ الأمر، غير أن نبرتها حملت دفئا افتقدته.

ساعدوها على النهوض، وساروا معها حتى وصلت إلى سكنها، وهناك وقفت عند باب غرفتها للحظات، أنفاسها متقطعة، جسدها منهك، وروحها تائهة. لم تنتظر كثيرا، مضت مباشرة إلى الحمام، أطلقت الماء فوق رأسها، فاندفعت القطرات تغسل ما علق بها من تعب الليل الطويل.

حين خرجت، ألقت بنفسها على الفراش، وكأنما تخشى أن تفقده مرة أخرى، غطّت رأسها بالغطاء، لتنظر إلى الجانب الآخر من السرير وتجد عبارة بخط مجهول علىِ دفترٍ مذكرات: "ليست كل يد تُمدّ إليك في الظلمة، يدِ إنقاذ... بعضها يد كانت هناك منذ البدايةَ، تقودك لا تُنقذك."

لم تعر بلي الأمر أي اهتمام من شدة تعبها وأغمضت عينيها، عل النوم يأخذها بعيدًا عن ثقل الليلة التي تركت في قلبها ندبة لن تزول. بعد ساعات، استيقظت، نهضت بلا تفكير، وكأن قرارا قد اتخذ في لا وعيها. نظرت إلى الغرفة حولها، ثم مدت يدها إلى الحقيبة، وبدأت تحزم أمتعتها بقوة، كمن يعصر قلبه في كل طية من ثيابه. مرت بجوار زميلاتها، فلم يلتفتن إليها، لم يتفوه أحد بكلمة، لم يسألها أحد إلى أين

تمضي. كانوا كأنهم لم يروا شيئا، كأنها لم تكن هنا من الأساس وشعرت وكأنها مجرد ظل عبر الغرفة دون أن يترك أثرا.

حين فرغت من جمع أغراضها، التقطت هاتفها بيد مرتعشة، ضغطت على الرقم الذي بات ملاذها الأخير، وما إن سمعت صوت "ماري" عبر السماعة، حتى انفجر بداخلها فيضان مكبوت من الدموع: "– ... ماري... هل يمكنك... أن تلتقي بي... أمام الجامعة؟"!

جاءها صوت "ماري" سريعا، قلقًا:

–"ما الذي يحدث؟! لماذا تبكين؟"!

لكن "بلي" لم تستطع سوى أن تكرر برجاء مختنق:

–" لنلتقي هناك، أرجوك"...

–"ماري: " حسنا، أنا قادمة! انتظريني"!

حين وصلت "ماري"، لم تحتج "بلي" إلى كلمات، كل ما فعلته أنها ارتمت بين ذراعي صديقتها، احتضنتها كأنها كانت تغرق وأمسكت بأول طوق نجاة ألقاه لها القدر. هزها البكاء حتى شعرت أن قلبها قد يتحطم، حتى كادت دموعها تحرق وجنتيها من فرط السقوط.

شعرت "ماري" بحرارة جسدها، بنبضات قلبها المتسارعة كطائر مذعور، بحشرجة صوتها التي تختنق بالكلمات غير المنطوقة. لم تحتج إلى تفسير، لم تسأل، كل ما فعلته هو أن شدّت ذراعيها حول "بلي"، وكأنها تخبرها:

"أنا هنا، أنت بأمان الآن".

بعد أن هدأت، أمسكت "ماري" بيدها، وأخذت منها حقائبها بلا تردد، ثم لوحت بيدها لتوقف سيارة أجرة قائلة:

" ـــــلن تبقي هناك بعد اليوم، ستسكنين معي، وسنجعل من أيامنا أوقاتاً لا تنسى، مليئة بالضحك والطمأنينة".

وهكذا، حملتها معها، كما يحمل النهر ورقة خريفية ويأخذها إلى مكان أكثر رحابة. في الأيام التالية، لم تترك "ماري" صديقتها للذكريات الحزينة. صنعت لها جدولًا من الأنشطة التي تُعيد للحياة بهجتها.

أخذتها إلى أحد المطاعم المفضلة لديها، حيث جلسا وسط أجواء دافئة، تتحدثان، تتذوقان أطباقًا لم تعهداها، تضحكان على النكهات غير المتوقعة، وكأن الطعام لم يكن لإشباع البطون، كان لإحياء الأرواح.

ثم جرتها إلى جولة تسوق، كانت "بلي" تتنقل بين الرفوف، تتلمس القماش، تراقب الألوان، كأنها تستعيد شيئًا من ذاتها في كل قطعة تختارها. ولم تكتف بذلك، بل أخذتها في نزهة إلى الحدائق المورقة،

حيث النسيم العليل والممرات المظللة بالأشجار، حيث يمكنهما المشي بلا وجهة سوى الهروب من ثقل الأيام الماضية.

وهكذا، شيئًا فشيئًا، بدأ الحزن ينحسر، وبدأت الحياة تستعيد ألوانها. ولبثت الأيام تتعاقب حتى آن أوان فرصة مواتية، لم يكن مثلها مما مر، إذ طُرحت أمام بلي وماري سانحة لا يستهان بها، فبدا لهما أن يضمّا خطاهما إلى ركاب رفاقهما في رحلة تهتزُّ لها القلوب طربًا، وتنتفض لها الأرواح شوقًا. كانت الوجهة إلى غابة غاب في أرجائها سرُّ الدهر، وأظلتها حكاياتٌ تهمس بها الرياح في صمت مهيب. غابة تريانغلTrianguler ، حيث تنفرج الأرض عن أسرار لم يسبر غورها، وترنو الأبصار إلى مهاوٍ لم يدرك قرارها، وحيث يتهامس الركبان عن صنيع الدهر فيها، وعن حوادثَ وقعت بها، حتى سُمّيت بالوادي المستور، لا يدخله أحد إلا رويت عنه عجائب وأحاديث.

لم تكد بلي تسمع الخبر حتى أوغلت في كتب القوم ومروياتهم، تقرأ وتستنطق الحروف عن مآل تلك الغابة وما قيل فيها. وإذ وقعت عينها على مقال قديم، دب في أوصالها خوفٌ كأنه ريح شاتية تهبُّ على جسد ناحل، فاهتز لها قلبها، وارتعش لها جنانها، حتى وقفت مترددة بين رغبة نحو المجهول، وحذرٍ يشدُّها إلى الوراء.

فلما أطلعت ماري على ما قرأت، لم تجد في عين صاحبتها خوفًا ولا اضطرابا، بل أبصرت فيها وهج المغامرة وعزم المكتشف، فكان في

ذلك ما أيقظ في بلي رغبةً قد غفت، فإذا هي تستعيد أنفاسها، وترى في الغابة تحديا لم يعد يرهبها كما كان بادئ الأمر.

وما لبث القوم أن اجتمعوا، يتداولون الحديث عن الغابة، وعن الأساطير التي نسجتها السنون حولها. قيل إنها مأوى لأحداث لا تُفسَّر، وإنها تحمل بين أشجارها أبوابا لعوالم مجهولة، تغيب فيها الأجساد ولا يعرف لها مآب، وإن الليل فيها يحجب أكثر مما يظهر، فلا تُسمع إلا أنفاس الريح، ولا تُرى إلا أضواء كأنها شُعل تشتعل ثم تخبو. لكن الفريق، إلا بلي وماري، لم يلتفت إلى هذه الأقوال، بل ضحكوا منها، وقالوا: "ما أكثر ما قيل، وما أقل ما ثبت! لو صدّقنا كل ما رُوِي، لما وطئنا أرضًا ولا سرنا في فلاة!" فأُجمِع الرأي على المسير، وتجهز القوم للرحيل.

وحين أقبلوا على الغابة، كانت الطبيعة قد افترشت بساطها الأخضر، وتهادت الجبال كأنها صدور تحمل السماء، وسالت الأنهار رقراقه كأنها أسلاك فضة، بينما كانت الأزهار تبث عطرها في الأرجاء، وتتمايل الأشجار في رهبة وسكون. وما زال القوم يتجاذبون الحديث، حتى غابت الشمس، وارتمى الليل بردائه على المكان، وسكن كل شيء إلا أنفاسا تتردد، وعيونا ترقب الظلام في ترقب مجهول. وحين لم يبق إلا وهج النار المتراقص بين وجوههم، خطر لأحدهم أن يسرد قصةً مما حفظته ذاكرته عن أفواه الشيوخ والكهول. قصةً ترددت في